إسماعيل عليه السلام

هاجر إبراهيمُ إلى فِلَسطين، ومعه زوجةُ سارّة، وخادمها هاجر، واستاقوا معهم أنعامَهم، واحتملوا ما يملكون من مالٍ جزيل، وخير جليل، وأقام وسط أهله وعشيرته، وبين الطائفة القليلة التي آمنت به.

كانت سارَّةُ عقيمًا لا تلد، وكان يُحزِنها أنْ ترى بعلَها الوفيّ يتطلع إلى النسل، وقد أصبحت هي على حال لا يُرْجَى فيها الولد، فقد بلغت من الكِبَر عتِيًّا، فأشارت على زوجها أنْ يدخلَ بأمَتِها[1] هاجر، وهي الوفيّةُ الكريمة، المطيعةُ الأمينة، علّها تُنْجِب ولداً تشرِقُ به حياتهما، ويُسَرِّي عنهما بعض ما يجدان من لوعة الوَحدة، ومَرَارة الوحشة، فانصاع لرأيها، وخَضَع لإشارتها.

فلّما وهبته إياها أنجبت غلاماً زكياً، هو إسماعيل، فانتعشت نفسُ إبراهيم، وقرَّت عينُه، ولعل سارّة قد شركت إبراهيم في سروره، وشايعته زمناً في بهجته، ولكن الغَيْرةَ لم تلبث أنْ دبَّت إلى قلبها، بل عصفت بها أعاصيرُ شديدة من الحزن والشجَن، أثارهما قلقُها واضطرابُها، فَحُرمت الهدوءَ والهجوع، وتشعب لبُّها، وعقدت عليها الكآبةُ سحابةٌ مُطْبقة، وأصبحت لا تُطيق النظر إلى الغلام ولا تحتمل رؤية هاجر.

هي الآن مُلتَاعَةٌ متحسِّرة، كئيبة متذمّرة، لم تجد دواء لعلّتها، وكشفاً لدائها إلا إقصاءه وأمّه عن دارها، وإبعادهما عن عينها، فتمنّت على زوجها أن يذهب بهاجر وطفلها إلى أقصى الأماكن، حتى لا يصل صوتُهما إلى سمعها، ولا تَقذى برؤيتهما عينُها.

أَذعن لإرادتها؛ وكأن الله أوحى إليه أن يُطِيعَ أمرها، ويستجيب إلى رجائها؛ فركب دابتَه، واصطحب الغُلامَ وأمّه، وسار تُرْشِده إرادة الله، وتحْدُوه عنايتُه، وطال به السير، واستدّ الطريقُ، حتى وقف عند مكان البيت. فأنزل هاجر وطِفْلها في هذا المكان

---

(١) الأمَة: المرأة المملوكة خلاف الحرة.

البَلْقع[١]، وتركهما في تلك البُقْعة الجرداء، وهما ضعيفان لا يملكان شيئاً، سوى مِزْوَد[٢] بـه قليل من الطعام، وسِقاء[٣] فيه شيءٌ من الماء، وإيمانٌ بالله يَعمرُ قلبهما، ويغمر نفسهما.

ترك الديارَ، واستودعهما الله في هذا المكان، وقفل راجعاً؛ فتبعته أمُّ إسماعيل وتعلقت به، وأمسكت بثوبه، وقبضت على خِطام[٤] دابّتِه، وقالت: يا إبراهيم؛ إلى أين تذهب؟ ولمنْ تـتركنا بهذا الوادي الموحِش المقْفِر[٥]!

حاولت أن تستعطفَه، ولعلها قد أشارت إلى ابنها تسترحمه بحقه، وتـتوسل إليه بفلذَة كَبِدِه، وترجوه ألاّ يخلِّيَ بينهما وبين الجوع القاتل، والعطش المميت.

وقد تكون سألته: مَن يَحمْيهما مِن سَطْو[٦] الذئاب؟ ومن يمنعهما من فتك الوحوش؟ وكيف يحتمون لَفْحَ[٧] الشمس، وحرارة الجوّ؟ وأسالت تحت قدميه العبرات الغزيرة، وذرفت الدموعَ السخينة، ترجو أن يُصيخَ إلى استعطافها، ويستجيب إلى ندائها، ولكنه لم يستمع إلى قولها، ولم تَلنْ قناتُه لرجائها، بل أبان لها أنّ ذلك أمر الله وتلك إشارته، فلا بُدّ لها من الخضوع لحُكمه، والتسليم لأمره! فلما علمت بذلك كفَّت عن حِوَاره، واستسلمت لأمر الله، وركنَتْ إلى رحمته، وقالت: لن يُضَيِّعَنا.

أما إبراهيم فإنه انحدر من تلك الرَّبْوَة يُثقله الإشفاق والخوف، ويدفعه الإيمان والثقه بالله، ولا شكّ أنه الآن يتحسَّر جوى ولوعة، لبِعاد فلذة كبده، وفراق حُشاشة[٨] نفسه، ووداع بكْرِه الذي اكتحلت عيناه به بعد أن اكتمل عمره أو كاد، وكان يُصَعِّد

---

(١) البلقع: الخالي من كل شيء.
(٢) المزود: وعاء الزاد.
(٣) السقاء: وعاء من جلد يكون للماء واللبن.
(٤) الخِطام: الزمام.
(٥) المقفر: الخالي.
(٦) سطا على الشيء: بطش به وقهره.
(٧) لفحته النار: أصابت وجهه وأحرقته.
(٨) الحشاشة: بقية الروح في المريض.

الزَّفَرات، ويختنق بالعبرات[١]، ولكن إبراهيم في مكانه من الله، وفي مقامه من النبوّة لا بد أن يَصْبِرَ على البلاء، ويستسلم للقضاء، لذلك سار إلى وطنه، وخلّف وراءه وَحِيده في تلك البقعة النائية، وهو يدعو الله أن يكلأه[٢] بعنايته، ويحفَظه برعايته، ويقول: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾[٣].

نبع زمزم

قد امتثلت هاجرُ للقضاء المحتوم، وتحلّت بالصّبْر الجميل، ومكثت تأكلُ من الزاد، وتشرب من الماء حتى نَفِدَا، فخَوَى بطنها، وعَصب[٤] رِيقُها.

واحتملت ذلك صابرةً، ولم تلبث أن جفَّ ضَرْعُها، وأصبحت لا تجد لبناً ترْضعه الطفل، أو ماء يَبُلّ صدَاه[٥]، وثقلت عليه وطأة الجوع والعطش، فبكى وانتحب، وصرخ وأعْول، وأمّه تتقطّع نفسُها حسراتٍ، ودُموعها تنهلّ غزيرات، وودّت لو استطاعت أن تَرْوي ظمأه بدُموعها، وأن تردّ عنه غائلة العطش بماء شؤونها[٦]، ولكن هيهات!

حاولت أن تجد لها من مَأزقها مخرجاً، وكان قذًى[٧] في عينيها أن ترى ابنها يتلوّى، وتتميَّع[٨] نفسه أمامَها، فتركته مكانَه، وسارت هائمةً على وجهها، تعدو وتهرول، وقد هاجها إلتياع طِفلِها، وأحزنها بكاؤه ونحِيبه، وأخذت تبحث عن الماء، وتفتّش له عن غِذَاء، حتى قرعت صَفاةَ الصّفا[٩]، ثم عادت فَرِعة مذعورة لهول مُصابها

(١) العبرات جمع عبرة: وهي الدمعة.
(٢) كلأ الله فلاناً: حفظه.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٤) عصب الريق بفيه: يبس وجف.
(٥) الصَّدى: العطش الشديد.
(٦) شؤون العين: مجاريها الدمعية.
(٧) القذى جمع قذاة: وهو ما يتكون في العين من رمص وغمص وغيرهما.
(٨) ماع الجسم: ذاب وسال. والمعنى هنا شارف على الموت.
(٩) الصفا: مكان مرتفع من جبل أبي قبيس بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادي.

في وحيدها. وسعت نحوسَرَاب[١] حسِبَتْهُ ماء عند المَرْوَة[٢] حتى إذا جاءته لم تجده شيئاً، ثم كرّت راجعةً إلى هدَفِها الأول، ورجعت ثانية إلى غَرَضِها الثاني، وهكذا سعت سَعْيَ المجهود سَبْعةَ أشواط، والطفلُ يصيحُ ويَصْخب، يُقطّع بصوته نِيَاط قَلْبِها، ويَحِزّ بعَويله في أعماق فؤادها.

رُحمَاك يا ربّ! هذا طفل جفَّ حلْقه حتى عيَّ عن البكاء، وانقطع عن الغذاء حتى خارت قُوَاه، وخفتت أنفاسه! وهذه أمٌّ ترى وحيدَها يُسْلم رُوحَه ويجود بنفسه، وهي لا تجد لها معيناً في وَحدتها ولا سَلوة في مصابها! إنه الآن يفحص[٣] الأرض برجليه، ويضرب الصَّلد[٤] بقدميه، علّه يرِقّ لحاله إذ قست القلوب، ويلين لاستعطافه إذ عزَّ النَّصير، وهذا هو ذا يضرب ويضرب، فإذا الماء قد انبجس من تحت قدميه، وفأر من قَرْع رِجليه! وإنّ من الحجارة لما يتفجّرُ منه الأنهار!

رأت رحمةَ الله تحوطها؛ وعنايةَ ربها تُظلُّها؛ فجلست خائرة[٥] القُوَى، يقطر العرقُ من جبينها، وأكبّت على الطفل متلهّفةً، تروي ظمأه، وتُبلِّل بالماء شفتيه؛ فَسَرَّها أن ترى الحياة تَدِبّ في جسمه، وأن يُقبل عليها في لهفة وشوق، تضمُه إلى صدرها، وتُرَبِّتُ[٦] عليه بيدها، ثم تكفكف دموعَه، وتسرِّي عنه شجونَه وأحزانهُ، حتى إذا أطمأنّت على وليدها، وعادت إلى الثقة بنجاته، وعاودها السرورُ بحياته، ارتوت هي أيضاً، فسرتْ فيها الحياة، وانقشعت تلك السحابة السوداء التي أظلتها زمناً، وذلك بفضل الله وعنايته.

هذه العين هي زمزمُ ولا زالت قائمة يزدحم حولها الحجيج، ويستبِق الناسُ إلى حَوْضِها، علَّهم يفوزون منه بقطرة، أو يرجعون بِشُربة.

ولما نبع الماءُ اجتذب الطيرَ إليه، فحومّت[٧] حوله، وحلّت فوقه، وكان قوم من

---

(١) السراب: ما يُرى في نصف النهار من اشتداد الحر كالماء في المفاوز يلصق بالأرض.
(٢) مروة: جبل بمكة يعطف على الصفا.
(٣) فحص الأرض: حفرها.
(٤) الصلد: الصخرة العريضة الملساء.
(٥) خار: ضعف وانكسر فهو خائر.
(٦) ربتت الصبي: ضربت بيدها على جنبه قليلاً قليلاً لينام.
(٧) حام حول الشيء: دار.

جُرْهم[١] يسيرون قُرْبَ هذا المكان، فرأوا الطيرَ تحط في ساحته، وتُحَوِّم فوقه، وإنهم ليعرفون أن الأطيار لا تقع إلا على الماء، فأرسلوا واردَهمُ يرتاد المكان، ويخبرهم بخبره، ولما ذهب إليه وجد الماءَ فرجع يَزُفُّ إلى قومه البُشرَى، فوفدوا إليه زَرَافاتٍ[٢] ووحُداناً، واتخذه بعضهم موطناً ومُقاماً، فأنِست هاجَرُ بهم، واطمأنت إلى جوارهم، وشكرت لله أن جعل أفئدةً من الناس تهْوِى إليهم.

الذبيح إسماعيل

لم يَنْسَ إبراهيمُ ابنه، بل كان يَفِدُ إليه لِمَاماً، ويزوره غِبًّا[٣]، ليطمئنَّ على حاله، ويقرَّ عَيْناً بِمَرْآه، فلما شَبَّ وأطاق السعي والعمل، رأى إبراهيم في نومه أنه يُؤمَر بذبح ولده ـ ورؤيا الأنبياء حقٌّ، وأحلامُهم صدق.

فتنةٌ إثْرَ فتنةٍ، ومحنةٌ تـتلوها محنة: شيخ هَرِم، جالدَ الأيامَ، وعَرَكَ الدهر، وأحْنته السنون، قد كان طولَ حياته يأمُلُ الولد، حتى إذا بلغ من الكِبَر عتِيًّا[٤] رزقه الله بغلام وحيد، قرّت به عينُه، وأشرقت له نفسُه، ثم أُمِر بأن يُسكِنه بوادٍ غير ذي زَرْع، ويتركه وأمه في مكان قَفْر، ليس به حسيس[٥] ولا أنيس، وامتثل لأمر الله، وتركهما هناك ثقةً بالله، وإيماناً به، وإطاعة لأمره، فجعل الله لهما من ضِيْقِهما فرَجاً ومخرجاً، ورزقهما من حيث لا يحتسبان، ثم يؤمَر بِذَبْح هذا الولد العزيز، الذي هو بِكْرُه ووحيده! إن هذه لمحنة تنوء[٦] بها الجبال الراسياتَ، ولكن العظائمَ كفؤُها[٧] العظماء؛ فعلى قَدْرِ إبراهيم، وعُلوّ منزلته، وعلى مقدار ثبات يقِينه، وكمال إيمانه يكون ابتلاؤه واختباره.

استجاب لربّه، وامتثل لأمره، وسارع إلى طاعته، وارتحل حتى لَقِيَ ابْنَهُ، ولم يلبث

---

(١) قبيلة يمانية، راجع: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ وتفهيم القرآن لأبي الأعلى المودودي ١/ ٤٧٥.

(٢) الزرافة: الجماعة من الناس.

(٣) غب الرجل في الزيارة: زار في الحين بعد الحين.

(٤) عتا الشيخ: كَبُرَ وولى.

(٥) الحسيس: ما تسمعه مما يمر قريباً منك ولا تراه.

(٦) ناء الشيء: أثقل به فسقط.

(٧) الكفء: المماثل.

أن ألْقَى إليه بتلك الرغبة التي تَدُكُّ الجبال، وتنزع القلوبَ من الصدور، فقال: يا بُنيَّ، إني أرَى في المنام أني أذْبَحك، فانظر ماذا ترى؟

عرض عليه الأمر: ليكون ذلك أطيبَ لقلبه، وأهْوَن عليه من أن يأخذه قَسْراً[١]، ويذبحه قَهْراً، فبادر الغلام بالطاعة، وأسرع إلى الإجابة، فقال: يا أبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَر، ستَجِدُني إن شاء الله منَ الصَّابِرين.

بِرٌّ عظيم، وتوفيق من الله أعظم، وإيمان وثيق، ونفسٌ راضية بما أراد الله وقَدَّر.

ثم أراد أنْ يُخفِّف عن أبيه لوعة الثُّكْل[٢]، ويرشده إلى أقرب السُّبُل إلى قَصْده، فقال: يا أبتِ، اشددْ وَثَاقي، وأحْكِم رِبَاطي حتى لا أضطرب، وأكشف عني ثيابي، حتى لا ينتضِحَ عليها شيء من دَمي، فينقص أجري، وتراه أمي، فيشتد حزنها، وتفيض شؤونها، واشحذْ شَفرتك[٣]، وأسْرِع إمرارَها على حَلْقي ليكُون أهون عليَّ؛ فإن الموت شديد ووَقْعه أليم، واقرأ على أُمي السلام، وإن أردتَ أن تردّ قميصي عليها فافعل؛ فإن ذلك فيه تسريةٌ لهمِّها وَسَلْوَة لها في مصابها، وهو ذكرى لوليدها، تَشَمّ منهُ عَبيره، وتـتنَّسم فيه أرِيجه، وتعود إليه حين تبحث حولها فلا تجدني، وتفتش عني فلا تراني.

قال إبراهيم: نِعم العونُ أنتَ يا بنيَّ على أمر الله! ثم ضَمَّه إلى صدره، وأخذ يُـقَـبِّله، وتباكَيا وانتحبا.

ثم أسلم إبراهيم ابنه، فصرعه على شِقِّه، وأوثقه بكِتَافه، وأمسك السكين، وأخذ يصوّب النظر إليه مرة، ويحدّق في ابنه مرةً أخرى، ثم تدفّقت عَبَرَاته، وتتابعت زَفَرَاته رحمةً به، وإشفاقاً عليه، وأخيراً وضع السكين على حَلْقه، وأمرّها فوق عنُقه، ولكنها لم تقطع؛ لأنَّ قدرةَ الله قد ثَلمت[٤] حَدَّها، وفلّت[٥] من غرْبها[٦].

---

(١) قَسَر فلاناً قسراً: قهره على كره، وقَسَره على أمر: أكرهه عليه.
(٢) الثُّكْلُ: فقد الحبيب.
(٣) الشفرة: ما عُرِّض وحُدِّد من الحديد كحد السيف والسكين.
(٤) ثَلَمَ السيفَ: صيَّره غير ماضي القطع.
(٥) فَلَّ السيفَ: ثَلَمَه وكسره في حده.
(٦) سيف غرب: قاطع حاد.

فقال إسماعيل: يا أبتِ، كُبَّنِي على وَجْهي، فإنك إذا نظرت إليّ أدركتْك رحمةٌ بي، تحولُ بينك وبين أمْر الله، ففعل. ثم وضع السكين على قَفَاه، فلم تمض الشَّفْرَة، ولم تَفرِ[١] الأوداج[٢]، وأدركَت إبراهيم الحيرةُ، وشقَّ ذلك على نفسه، فتوجّه إلى الله أن يجعلَ له مخرجاً؛ فرحِم ضَعْفَه، واستجاب لدعائه، وكشف غُمَّتَهُ ونودي ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾[٣].

فاستبشرا بالفوز، واغتبطا بالنجاة، وَحَمِدا الله على ما أنعم به عليهما من دفْع البلاء، وكَشْفِ الغُمَّة، وقد نالا جزيلَ الثواب، وخَيْرَ الجزاء، وصارا بعد هذا الاختبارَ أصْفَى نفساً، وأثبت إيماناً، وأرسخ يقيناً، إن هذا لهو البلاء المبين.

فدى الله إسماعيل بذبح عظيم، رآه بجواره، فأقبل عليه، وهَوَى بتلك السكين التي كانت كَلِيلة[٤]، وأمَرَّها على حَلْقه، فصُرِع لوقته، وخضب[٥] الأرض بدمه؛ فكان فداءً لابنه، وَحقْناً لدمه، ثم صار ذَبحُ الضحايا أمراً مُتَّبعاً يساهِمُ فيه المسلمون كل عام، ذكرى لذبح إسماعيل، وشكراً لله على نعمته.

* * *

إسماعيل وجرهم

حلّق الطيرُ في سماء تلك البُقعة التي نبع فيها الماء، وحوّمت حول هذه البئر أسرابهُ، وسَرَت في هذا المكان حياةٌ جديدة، وإن لم يَتّصل خَبَرُها بأحد، حتى رأى قوم من جُرْهُم كانوا قد نزلوا في أسفل مكة طائراً عائفاً[٦]، فقالوا: إن هذا الطائر ليَدُورُ على ماء، وعَهْدُنَا بهذا الوادي صحراء بَلْقَع[٧]، ثم أرسلوا رائدهم، فسار حتى وجد الماء فرجع

(١) أفَرَّ رأسه بالسيف: شقه.
(٢) الأوداج جمع وداج: وهو عرق في العنق، وهو الذي يقطعه الذابح فلا تبقى معه حياة.
(٣) سورة الصافات، الآية: ١٠٤ و١٠٥.
(٤) الكليل: الضعيف، وهنا بمعنى سكين غير قاطعة.
(٥) خضب: لون، تَلَطَّخ.
(٦) عاف الطائر: دار حول الشيء يريد الوقوع عليه.
(٧) البلقع: الخالي من كل شيء.

يزفُّ إليهم البشرى؛ فأقبلوا فَرِحين، ووفدوا مسرعين، وحلّوا بالمكان، فرأوا أمّ إسماعيل عند الماء؛ فاستأذنوها في النزول بجوارها، والسُّقْيَا من مائها، فأذِنَتْ لهم، على أن يكونوا ضيوفاً مُكْرمين، لا مقيمين مغتصبين.

فنزلوا على إرادتها ورَضُوا حكمها، ثم أرسلوا إلى أهليهم فأقبلوا إليهم يَزِفُّون، واجتمع بهذا الْحَيّ منهم أهلُ أبياتٍ كثيرة.

ثم شبّ إسماعيل، واستقام عودُه، وذاع صِيتُه، وطار ذكْرُه، واختلط بالقوم وحاكاهم في لغتهم، وتعلم لسانهم، وأخذ العرَبية عنهم، ثم تزوّج بواحدة منهم، فتمَّ اندماجُه فيهم، وتوثقت صِلَتُه بهم، وما أظنّه إلا قرّ عيناً باكتمال نموِّه، وامتلأ سروراً باجتماع أسبابِ السعادة، ولكن الدهر قُلَّب، فها هي ذي المنيَّة تختطف أمه، فعزّ عليه فَقْدُها، وَتَفَطَّر قلبهُ حُزْناً عليها، فقد تعهدته في مَهْدِه، ورعَتْهُ في طفولته، وأظلّته بحنانها في شبابه، وكانت له دائماً عَضُداً في الملِمَّات، ومُعِيناً في النازلات.

ولم يكن لإبراهيم أن ينسى وَدِيعَتَه، وأن يسلوَ فلْذَة كبده، ولذلك كان يتردّد على هذا المكان الذي ترك فيه أهله وولده، يتفقّد حالَ ابنه، فوفد إلى مكة مرة، وأتى بيت إسماعيل، فلم يجد إلا امرأته، فسألها عنه، فأخبرته أنه خرج يبتغي لهم شيئاً، ثم شكت إليه سوءَ الحال، وضِيقَ اليد، وشظفَ العيش، فرأى فيها امرأة متمرّدة على القدر، ناقمةً على القضاء، غير راضية بما قسمه الله لها، ورأى أنها لا تصلحُ لابنه زوجاً، لتبَرُّمها بالحياة معه، وشكواها من معاشرتها إياه، فأشاح عنها بوجهه، ولوَى[1] عِنَان دابَّته، بعد أن حَمّلها السلام لابنه، وأوصاها أن تبلّغهُ أنْ يُغيِّرَ عَتَبَةَ داره، يكنّي بذلك أن يُفَارِقَ زوجته، وأن يستبدلَ بها خيراً منها.

وبعد لأيٍ[2] أقبل إسماعيلُ إلى أهله، وكأن أنس شيئاً، فقال لامرأته: هل جاءنا اليوم أحد؟ فقالت: نعم، طرقَ بابنا شيخٌ صِفَتُه كَيت[3] وكَيت، سألنَا عنك فأخبرناه بخبرك، وأظهر حَدَباً عليك، ورغبةً في تَعَرُّف أمرك، وتبيّن حالك، فأعلمتُه بما نحن فيه

(١) لوى: فتل وثنى.
(٢) لأي فلان لأياً: أبطأ.
(٣) كيت وكيت: كذا وكذا وهي كناية عن القصة ولا تستعملان إلا مكررتين.

من الضِّيقِ وَالشدَّة. قال إسماعيل: هل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يُقْرِئك السلام، ويوصيك أن تُـغَـيِّرَ عَتبَةَ دارك، فقال: ذاك أبي، وقد أمَرَني بفرَاقك؛ وتركها غير آسفٍ عليها.

ولم يلبث إبراهيمُ أن عاد يتفقدّ وَلَدَهُ، ويطفيء لهيبَ شوقه، وأتى دار إسماعيل، ولكنه لم يجد فيها إلا امرَأته، فسألها عن مقرّه ومحطّ رحاله؛ فأخبرته أنه خرَج يبتغي لهم رزقاً.

ولما همَّ بالرجوع التفت إليها يسائلُها عن حالهما، ويستخبرها خبرهما، فلهج[1] لسانها بالثناء، وفاض بالحمد، وذكرت له أنهما في خَيْرٍ من الله كثير، وفيض من نِعَمته عَمِيم. حينئذٍ اطمأنَّ قلبهُ، وانشرح صَدْرُه إذ رآها قانعة راضية شاكرة مؤمنة، وعلم أنها وزوجها في خير وَسَعَة، فأمرها أن تقريء زوجَها السلام، وتوصيه أن يحافظ على عَتَبَة داره، وقفل[2] راجعاً إلى أهْلِه.

ولما طُوِي النهار أقبل إسماعيلُ إلى أهله كعادته، ولم يلبث أن تجاذب وزوجه أطراف الحديث، فأخبرته أنَّ شيخاً حسنَ الهيئة وَسِيمَ الطلعة؛ يُجلِّلُهُ الوقار، وتكسوه الهيبة، قد طرق اليوم بابهم، وولج دارَهم، وأنه قد استنبأها خبره، وأراد الوقوف على أمره، فأخبرته أنهما في خير وسعة، وأنه قد أوصاها أن تُقْرئه السلام، وتأمره أن يثبتَ عتبةَ دارِه. قال إسماعيل: ذاك أبي، وقد أمرني ألاَّ أُفارِقَك. فلازمها حياته، وكانت أمَّ أبنائه.

* * *

بناء الكعبة

لبث إبراهيمُ بعيداً عن ابنه ما شاء الله أنْ يلبث، ثم وفد إليه، لا ليتفقد أمْرَه، أو يتعَرَّف حاله، أو يُرْوي صَدَى شَوقِه، كما كان يفعل، بل جاء اليوم هذه البِقاع لأمرٍ جليل، وشيء عظيم، فقد أُمِرَ ببناء الكعبة، وإقامة أول بيت للناس، فاستجاب لأمر ربِّهِ، واضطلع به غير هَيّاب ولا وَجِل.

---

(١) لهج بالأمر: أولع به فثابر عليه واعتاده.
(٢) قفل: رجع.

وخفَّ إلى الحجاز، وجدَّ في البحث عن إسماعيل، وأخذ يَجُوبُ مواقعَ الماء ومنازلَ القبائل، ومضاربَ الخيام، حتى عثر عليه، وقد جلس تحت شجرة باسقة الفروع، وهو يَبْرِي سهاماً له قريباً من زمزم.

ورآه إسماعيل مُـقْبِلاً، فنفضَ يده مما كان يُعَالجه، وخفّ إلى استقباله وقد تهلّلَ وجهُهُ، وانبسطت أساريره، وانشرح صدره، واندفع إليه مُهَلّلاً. وسَرْعان ما تعانق الوالدُ والولد، وبثَّ كل منهما للآخر ما يجِدُ. وبعد أن أطفآ جَذْوة[1] الشوق، وخفّفا لَوْعَة الفراق جلسا يتحادثان، ولو مَدَدْت عينيك لرأيت مظاهِرَ الحنان والعطف، وأحسستَ بوادِرَ السرور والغبطة، للقاء هذا الولد البارّ بذلك الوالد الرحيم.

مضى عليهما في هذا المقام وقتٌ طويل، أفاقا بعده في نَشْوَةِ السرور، وهناك أفضى إبراهيم إلى ابنه بسرٍّ رهيب، وأخبره بأمر عجيب، فقال: يا بنيّ إن الله قد أمرني أنْ ابني هُنا بيتاً ـ وأشار إلى أكَمَةٍ[2] مرتفعة على ما حولها ـ فكان إسماعيلُ أطوعَ له من بَنَانِهِ، وما كان جوابه إلا السمع والطاعة.

ثم سارا إلى المكان يَحْدُوهما الرجاءُ، وتُزْجِيهما قوة من الله تشدُّ من أزرهما وتقوِّي من عَزمِهما، وصارا بالمعاول يحفران، ويرفعان قواعد بيت الرحمٰن، وهما يسألان الله ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾[3].

ولم يلبثا طويلاً حتى وضع الأساسُ، وظهر موضعُ البناء، ثم جعل إسماعيلُ يأتي بالحجارة ويهيىء الأدوات والآلات وإبراهيم يَبْني، ولا شك أنه قد كانت هناك قوة تعاونهما، حتى يضطلعا بهذا الأمر الخطير، ويستطيعا وحدهما القيام بهذا العبء الثقيل.

ارتفع البناءُ، وطال الجِدَارُ، وقصرت يدُ إبراهيم عن أن تنال أعلى البناء، وضعُف الشيخ عن أن يرفعَ الحجارة إلى هذا العلو. فقال: يا بنيَّ، اطلبْ لي حجراً أضعهُ تحت قدميّ لعلي أستطيعُ إتمامَ ما بدأت، وأشْرِفُ على ما بنيت.

---

(١) الجذوة: الجمرة الملتهبة.

(٢) الأكمة: التل.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٧ و١٢٨.

فذهب إسماعيل يجدُّ في البحث، حتى عثر على الحجر الأسود فقدمه إلى أبيه، فقام إبراهيمُ عليه، وصار يبني وإسماعيلُ يناولُه، وكلما كملت ناحية انتقل إلى أخرى، وكلما فرغ مِنْ جِدَار سار إلى آخر، وهكذا تمَّ بناءُ البيت الذي جعله الله مثابةً للناس، تشتاقُ إليه أرواحُهم، وتحِنُّ إليه أفئدتهم، استجابةً لدعاء إبراهيم إذ قال: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾[1].

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.